

سورة هود عليه السلام

وهى مكية كالتى قبلها ، وعدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة ، نزلت بعد سورة يونس ، وتضمنت ماتضمنته تلك من أصول الإسلام ، وهى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء .

وفصل فيها ما أجمل فى سابقها من قصص الرسل عليهم السلام وهى مناسبة لها فى فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة فى أثنائها ، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد (الراء) وذكر رسالة النبي المبلغ عن ربه ، وبيان أن وظيفة الرسول إنما هى التبشير والإنذار وفى أثنائهما ذكر التحدى بالقرآن والرد على الذين زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد افتراه ، وُحاجَّةُ المشركين فى أصول الدين ، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه وبين الكافرين ، وفى الثانية بانتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه .

وعلى الجملة فقد أجمل فى كل منهما ما فصل فى الأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فقد اتفقتا موضوعا فى الأكثر واختلفتا نظما وأسلوبا مما لا مجال للشك فى أنهما من كلام الرحمن ، الذى علم الإنسان البيان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ

كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤)

شرح المفردات

(الر) تقدم أن قلنا إنها حرف تنبيه كالأ وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال : (أَلِفٌ
لَامٌ ، رَا) وإحكام البناء كالتقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل ، وتفصيل
العقد بالفرائد : جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر ، والمتاع
كل ما ينتفع به في المعيشة وحاجة البيوت ، والأجل المسمى : هو العمر المقدر .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات فى أصول الدين وهى القرآن وما بين فيه من توحيد الله
وعبادته وحده والإيمان برسله والبعث والجزاء فى اليوم الآخر .

الإيضاح

(الر) كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (أى هذا كتاب
عظيم الشأن جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف واضحة المعانى لا تقبل
شكا ولا تأويلا ولا تبديلا كأنها الحصن المنيع الذى لا يتطرق إليه خلل - وجعلت
فصولا متفرقة فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ وجميع ما أنزل له
الكتاب من الحكم والفوائد فكأنها العقد المفضل بالفرائد ، ولا عجب فقد أنزلت
من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ويعطيهم ما فيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذلك
ومصادره وموارده .

(ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير) أى أحكمت وفصلت بالأ تعبدوا
إلا الله ، أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ،

وهذا كقوله : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَاقْدِرْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقل للناس إني من عند الله نذير ينذركم عقابه ، ويبشركم ثوابه إلى طاعته والإخلاص له .

وهذا بيان لوظيفة الرسالة ، ومبين لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) أى وأسألوه أن يغفر لكم ما كان منكم من أعمال الشرك والكفر والإجرام ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون سواه مما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان فإن فعلتم ذلك واستغفرتهم من كل ذنب وتبتم من الإعراض عن هدايتهم وتكذب سننهم يمتعكم في دنياكم متاعا حسنا فيرزقكم من زينة الدنيا وينسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذى قضى عليكم فيه الموت وهو العمر المقدر لكم فى علمه المكتوب فى نظام الخليقة وسنن الاجتماع البشرى فى عباده ، ولا يقطعه بعذاب الاستئصال ولا بفساد العمران ولا ينتقصه ما ينتقص من آدمى على الشرك والمعاصى .

ذاك أن الله محرم إلا الأشياء الضارة بالعقل أو بالصحة أو بنظام الاجتماع المالى أو البدنى ، وإنما يكفل ضررها بإصرار فاعليها عليها ، فإذا أقلموا عنها وندموا على ما فعلوا وبادروا إلى التوبة من قريب ، امتنع ذلك الفساد .

وهذه سنة مطردة فى ذنوب الأمم ، وهى فيها أظهر من ذنوب الأفراد ، فالشاهد أن الأمم التى تصر على الظلم والفسوق والعصيان يهلكها الله تعالى فى الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران حتى تزول منعتها وتمزق وحدتها .

(ويؤت كل ذى فضل فضله) أى وإن تجتنبوا الشرك وتؤمنوا بالله وتستغفروه يمتعكم متاعا حسنا تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة ويعط كل ذى فضل من علم وعمل جزاء فضله ، أما فى الآخرة فهو مطرد دائما ، وأما فى الدنيا فقد يكون ناقصا مشوبا بأكدار ولا يكون مطردا لقصر أعمار الأفراد .

(وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) أى وإن توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير الهول شديد البأس ، فيصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم ، أو قريب منه بعد نصر الرسول والمؤمنين .

(إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) أى إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم جميعاً أئماً وأفراداً لا يتخلف منكم أحد ، وحينئذ تلقون جزاءكم بالعدل والتسطاس ، وهو سبحانه قدير على كل شيء .

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُصِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

شرح المفردات

ثنى الشيء : عطف بعضه على بعض فطواه، وإثناء الثوب : إطواؤه، وثناه عنه : لواه وحوله ، وثناه عليه : أطبقه وطواه ليخفيه فيه ، وثنى عنائه عنى : تحول وأعرض والاستخفاء : محاولة الخفاء ، واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام : « وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم إن أعرضوا حاق بهم عذاب يوم كبير - بين في هذه الآية حالهم وصفتهم العجيبة الدالة على إعراض الخيرة والعجز ومنتهى الجهل .

الايضاح

(ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رؤوسهم كأنهم يحاولون طي صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن ليستخفوا منه صلى الله عليه وسلم حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رؤوسهم ، روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره كيلا يراه أحد .

(ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون) أى إن ثنى صدورهم وتكيس رؤوسهم ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم لا يغنى عنهم شيئاً ، فإن ربهم يعلم مايسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم ما يعلنون نهاراً .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شىء من توحيدهِ أو أمره أو نهيهِ .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

تمت مسودة هذا الجزء فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف هجرية بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية .